٤ ـ القلب المسكين

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

أما صاحبُ القلب المسكين فما كاد يرى الحبيبة وهي مقْبلة تتيمَّمنا حتى بغته ذلك فساوره القلق ، واعتراه ما يعترى المحب المهجور إذا فاجأه في الطريق هاجره . أرأيت مرة عاشقاً جفاه الحبيب وامتنع عليه دهراً لا يراه ، وصارمه مدةً لا يكلمه ؛ فنزع نومه من ليله ، وراحته من نهاره ، ودنياه من يده ؛ وبلغ به ما بلغ من السُّقم والضَّنى ؛ ثم بينا هو يمشي إذ باغتهُ ذلك الحبيب منحدراً في الطريق

إنك لو أبصرت حينئذ قلب هذا المسكين لرأيته على زِلزلة من شدة الخفقان ، وكأنه في ضرباته متلعْثمٌ يكرر كلمة واحدة : هي هي هي .

ولو نفذت إلى حس هذا البائس لرأيته يشعر مثل شعور المحْتَضر أن هذه الدنيا قد نفته منها

ولو اطلعت على دمه في عروقه لأبصرته مخذولاً يتراجع كأن الدمَ الآخر يطرده

إنها لحظة يرى فيها المهجور بعينيه أن كل شهواته في خيبة ، فيردُّ عليه الحبُّ مع كل شهوة نوعاً من الذل ، فيكون بازاء الحبيب كالمهزوم مائة مرة أمام الذي هزمه مائة مرة

لحظة لا يشعر المسكين فيها من البغتة والتخاذل والاضطراب والخوف إلا أن روحه وثبتْ إلى رأسه ثم هوت فجأة إلى قدميه

* * *

غير أن صاحبنا نحن لم يكن مهجوراً من صاحبته ؛ ولكن من عجائب الحب أنه يعمل أحياناً عملاً واحداً بالعاطفتين المختلفتين ، إذ كان دائماً على حدود الاسراف مادام حبًّا ، فكل شيء فيه قريبٌ من ضده . والصدق فيه من ناحية مهيِّأ دائماً لأن يقابل بتهمة الكذب من الناحية الأخرى ، واليقين مُعَدٌّ له الشك بالطبيعة ، والحب نفسُه قضاء على العدل ، فانه لا يخضع لقانون من القوانين ، والحبيب — مع أنه حبيب — يخافه عاشقه من أجل أنه حبيب

وقد يصفرُّ العاشق لباغتة اللقاء كما يصفر لباغتة الهجر ، وهذه كانت حال صاحبنا عند ما رآها مقبلةً عليه ؛ وكان مع ذلك يخشى إلمامها به توَقياً على نفسه من ظنون الناس ، وأكثر ما يحسنه الناس هو أن يسيئوا الظن ؛ وهو رجل ذو شأن ضخم ومقالة السوء إلى مثله سريعة إذا رُؤى مع مثلها . وكأنها هي ألمت بكل هذا أو طالعها به وجهه المتوقِّر المتزمِّت ؛ فعدلت عن طريقها الينا ووقفت على رئيس فرقة الموسيقى وما بيننا وبينها إلا خطوات . ورأيتها قد هيأت في عينيها نظرة غاضبتنا بها ثم لم تلبث أن صالحتنا بأخرى

وكأنها ألقت لرئيس الموسيقى أمراً ليتأهب لأبهته لدورها ثم همَّت أن ترجع ، ثم عادت اليه فجعلت تكلِّمه وعيناها إلينا ، فقال صاحبنا وأعجبه ذلك من فعلها : إنها نبيلة حتى في سقوطها

ولا أدري ماذا كانت تقول لرئيس الموسيقى ، ولكن هذا الرجل لم يظهر لي وقتئذ إلا كأنه تليفون معلق

* * *

كانت عيناها الى صاحبها لا تنزلان عنه ولا تتحولان الى غيره ، ولا تُسارقه النظر بل تغالبه عليه مغالبة ؛ ورأيته كذلك قد ثبتت عيناه عليها فخيل الى أن هذا الوجود قد انحصر جماله بين أربعة أعين عاشقة ؛ وكانت تُطارحه ويطارحها كلاما مخبوءاً تحت هذه النظرات وقد نسيا ما حولهما وشعرا بما يشعر به كل حبيبين إذا التقيا في بعض لحظات الروح السامية : أن هذا العالم العظيم لا يعمل إلا لاثنين فقط : هو وهي

وكان فمها الجميل لا يزال يُساقط ألفاظه لرئيس الموسيقى ، وكأنها تسرُد له حكاية مرويةً أو تعارض بحافظته كلاما تحفظه من كلام التمثيل أو الغناء ؛ فهي تتحدث وعيناها مفكِّرتان شاخصتان ، فلم ينكر الرجل هيئتها هذه ؛ ولكن كيف كانت عيناها ؟

لقد أرادت في البدء أن تجعل قوةَ نظراتها كلاماً ، حتى لحسبت أن هذه النظرات الأولى تهتف من بعيد : أنتَ يا أنتَ

ثم بدا في عينيها فتور الظمأ : ظمأ الحب المتكبر المتمرد ، لأنه حب المرأة المعشوقة ، ولأن له لذتين : إحداهما في أن يبقى ظمأ الى حين . . .

ثم أرسلت الألحاظ التي تتوهج أحياناً فوق كلام المرأة

الجميلة فى بعض حالاتها النفسية ، فتُضرم فى كلامها شرارةً من الروح تظهر الكلام كأنه يُحرق ويحترق . . .

ثم توجهت النظرات لأنها تصلها بالرجل الذى لا يشبه الرجالَ فلا يستوهب خضوعها ولا يشتريه ؛ والرجل كل الرجل عند مثل هذه المرأة هو الذى لا يشبه الباقين ممن تعرفهم ، فاذا أحبها فكأنما أحبها عذراء خَفِرةً لم تُمس ، وكأنه من ذلك يصلها بماضيها وطهارتها وحيائها وما لا يمكن أن تتمثله إلا فى مثل حبه

ثم ذَبَلَتْ عيناها الجميلتان ، وما هو ذبول عينى امرأة تنظر إلى محبها ؛ إنه هو استسلام فكرها لفكره ، أو عنادُ معنى فيها لمعنى فيه ، أو توكيد خاطرة تحتاج الى التوكيد ؛ ومرةً هو كقولها : لماذا ؟ وتارة هو كقولها : أفهمت ؟ وأحيانا ، وأحيانا هو انتهاء مقاومة

* * *

وتمت الحكاية المروية التى كانت تلقيها للتليفون .. فكرَّت راجعة الى المسرح بعد أن ساحت نظراتها مرة أخرى كما بدأت : أنت يا أنت ...

فقلت لصاحبنا : ويحك يا عدو نفسه ! لو اختار الشيطان عينين ساحرتين ينظر بهما اليك نظر الفتنة لما اختار إلا عينيها فى وجهها ، فى هيئتها ، فى موقفها ؛ وأراك مع هذا كمنتظر ما لا يوجد ولا يمكن أن يوجد ؛ وأراها معك فى حبها كالحيوان الأليف إذا طمع فى المستحيل

قال : وما هو المستحيل الذى يطمع فيه الحيوان الأليف ؟

قلت : ذلك حين يطمع فى أن تكون له حقوق على صاحبه فوق الألفة والمنفعة

قال : لقد أغمضتَ فى العبارة فبينْ لى شيئاً من البيان

قلت : هب كلبةً تألف صاحبها وتحبه فهى له ذليلة مطواع ، ثم يبلغ بها الحب أن تطمع فى أن يكون لها تمام الشرف ، فلا يقول صاحبها عنها هذه كلبتى ، بل يقول هذه زوجتى ...

قال : ويْ منك ، ويْ منك[1] ؛ لقد ضربتَ على رأس المسمار كما يقولون . هذا هو المستحيل الذى بينى وبينها ، هذا هو المثل . يا لفظَ الحلوى ، يا لفظ الحلوى ! لو كررتك بلسانى ألف مرة ، فهل تضع فى لسانى طعمها ... ؟

(١) أى عجب يتعجب من فطنته

قلت : خفِّض عليك يا صاحب القلب المسكين فلست أكثر من عاشق

قال : بل أنا مع هذه أكثر من عاشق ، لأن فى العاشق راغباً وفىَّ أنا راهب ، وفيه الجرىء وفىَّ المتكمش ، ويغترف الغُرفة من الشلاَّل المتحدِّر فيحسوها فيرتوى ، وأغترف أنا الغرفة بيدى ، وأبقيها فى يدى ، وأطمع أن تهدِرَ فى يدى كالشلال . . . . أنا أكثر من عاشق ، فأنه يعشق لينتهى من ألم الجمال ، وأعشق أنا لأستمر فى هذا الألم

هذه هذه . العجيب ياصديقى أن خيال الانسان يلتقط صورا كثيرة من صور الجمال تجىء كما يتفق ، ولكنه يلتقط صورة واحدة بأتقان عجيب هى صورة الحب ؛ فهذه هذه

ألم أقل لك إن إبليس هنا فى غير حقيقته الأبليسية ولم تفهم عنى[2] ؟ فافهم الآن أننا إن كنا لا نرى الملائكة فانه ليخيل الينا أننا نراها فيمن نحبهم ؛ وما دام سر الحب يبدِّل الزمنَ والنفسَ ويأتى بأشياء من خارج الحياة ، فكل حقائق هذا الحب فى غير حقيقتها

هذه هذه . لا أطلب فى غيرها امرأةً أجملَ منها ، فهذا كالمستحيل ، ولكنى ألتمس فيها هى امرأةً أطهر منها ، وهذا كالمستحيل أيضاً . إنها أجمل جسم ، ولكن واأسفاه ! إنها أجمل جسم للمعانى التى يجب أن أبتعد عنها

* * *

وسكت صاحبنا إذ رفعتْ ستارة المسرح وظهرت هى مرة أخرى . ظهرت فى زينة لا غاية بعدها تمثل العروسَ ليلة جَلوتها . ألا ما أمرَّها سخرية منك أيتها المسكينة ! عروس ولكن لمن ؟

كانت تبرُق على المسرح كأنها كوكب درى نوره نورٌ وجمال وعواطف شعر

وأقبلت تتمايل بجسم رخص لين مسترسل الأعطاف يتدفق الجمالُ والشباب فيه من أعلاه إلى أسفله

وأظهر وجهها حسناً وأبدى جسمها حسناً آخر فتم الحسن بالحسن

واقفة كالنائمة ، فالجوُّ جوُّ الأحلام ، وكان الحب يحلم ، وكان السرور يحلم

(٢) مر هذا المعنى فى المقالة الثالثة